إفلاسنا . هذه مبالغة خطرة وأخطر ما فيها أننا نريد بها المبالغة فى الدلالة على الأشياء ، فتنقلب مبالغةً فى الدلالة علينا نحن وعلى كذب طباعنا وعلى فوضى العقل فينا . نعم وحتى تُثبتُ أننا لا عزم لنا من كونها مبالغة لا تدقيق فى معناها ، وأن لا صبر لنا من أنها لاثبات لحقيقتها المهزومة ، وأن لا شدة لنا فى طلب الحق لأننا بها من أهل الغفلة فى وصف الحق ، وأننا لا نتمثل العواقب إذ نرسل الكلامَ ارسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبته . وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التى أصبحت طريقة من طرق الشعب فى التعبير — أن هذا الشعب لا يصلح فى شىء إلا بالحكومة ، فهو نفسه كالمبالغة ، والحكومة له كالتصحيح . وهذه هى العلة فى أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته فى كل كبيرة وصغيرة فى العمل ، كما أنها هى العلة فى أن حكومته تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة فى السياسة

ومن أثر الكذب الشعبى والمبالغة الشعبية ما تراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله فيُديرها على ذلك وإن قلت منفعتها ، وإن فسدت حقيقتها ، وإن جلبت عليه من الضرر فى ماله ونفسه ما هى جالبة ؛ فقاعدتهم هى هذه : ليس الشأن فى الحياة للعمل فى نفسه ولكن فيما يقال عنه ، فان لم يُقَل شىء فلا نعمل شيئاً . . .

هذه يا بنى أمة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً

* * *

قال صاحب السر : وارتفع من الطريق صوت بائع ينادى على سلعته : أحسن من التفاح يا طماطم ...

فضحك الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسى المَغفِن ، إنه ليس تفاحاً وحسبُ ، بل هو أحسن من التفاح

إن الأمة لن تكون فى موضعها إلا إذا وضعت الكلمةَ فى موضعها ، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق فى أمة كلمة الصدق فيها ، والأمة التى لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة ؟

(سيدى بشر باسكندرية) مصطفى صادق الرافعى

(إلى الصابرة) : أعتذر اليك من عدم الرد على كتابك ، فقد أضعت بين أوراقى فضاع عنوانك فيه (الرافعى)

عفـــوا أيها النقاد !

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أطلب اليكم العفو يا معشر الناقدين ، فانى لا أقصد بهذه الكلمة إلا الدعابة والمفاكهة — فقد رأيت الصيف قد اشتد ، واحتدمت وقدته ، وأردت أن أتقرب اليكم بما يزيل لسعته أو يخفف منها — ولا أدرى ما الذى أغرانى بهذه المداعبة المخطرة ، فوالله لقد كنت أرى أن مداعبة الفهود والنمور أهون أمراً وأسلم عاقبة من مداعبة نقاد الأدب . ولقد كانت دونى لو أردت مندوحة عن ذلك التعرض ، فلو شئت لداعبت الأدباء كافة ، ولم يكن على بأس منهم ، فانى لا أخشى من الأدباء بطشاً ولا صولا ، لأنهم يسيلون رقة وليونة ، وقد طبع الله فى قلوبهم وداعة وسلاماً ، فمنهم من يأخذه الجمال فيسلم له قياده حتى ليصير كالحمل يصرفه أضعف الخلق كيف يشاء ، وإن منهم من قد استغرقه الفكر وغلب عليه فلا تراه إلا حالماً لا يكلف أحداً مؤونة فى تصريفه ولا مشقة فى معاملته — فهؤلاء لا يأتى خوف من قِبَلهم ولا يتكلف المرء حيطة فى معاشرتهم — ولكن الناقد — والله يكلؤنا بحمايته ، فبه سلابة ، وله شوكة ؛ فهو دائما معقود الجبين على الصرامة ، محملق العينين على اليقظة ، كثير التجهم واللوم ، فاذا أخذته الرقة أحياناً رأيته يربت على كتف الناس متنازلا من عليائه ، وكل حركة من حركاته تنم عن دخيلة نفسه وكنين عقيدته ، إذ كأنما يقول عند ذلك : « إنا نعطف على هؤلاء المساكين تشجيعاً لهم حتى لا تنكسر قلوبهم »

لست أدرى ما الذى أغرانى بهذه المداعبة إلا أن يكون هذا الصديق المجيب التأثير الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فانه منذ كتب فى النقد وأنا أمانع نفسى وأغالبها لكى أمتنع عن الخوض فى الميدان الذى أثار غباره — ثم هأنذا تغلبنى نفسى على الأمر ، فأكتب للنقاد متعرضاً لما يتعرض له الداخل إلى حظائر السباع

على أنى مع ذلك قد قدمت فى أول قولى أنى إنما أداعب ولا أقصد إلا المفاكهة — فلعل تقدمى على هذا النحو يلوى عنى الشوكة التى أخشاها ، ويكف عنى الغضب والنقمة

لقد حمل الأستاذ أحمد الأمين بحق إلى عصر مضى من عصور

الأدب فى مصر ، وجعل يعير نقاد العصر الحاضر بالتقصير والميل حتى لقد استعبرت من فرط الأسى على ما فات عصرنا الحاضر من جليل النفع . ولكنى ما لبثت أن أفقت من أثر قوله وجعلت أرجع بالذهن إلى العصور التى شهدتها فلم أجد ذلك العصر الذى يؤبنه ويذكر محاسنه ؛ فلعله يشير إلى عصر لم أشهده ولم أعرف شيئاً عنه ، وذلك أنى لم أعد بعد حلقة الخمسين من السن ولا علم لى بما كان قبل ذلك ، وإنى لم أدرك ما كان حولى إلا نحوا من ثلاثين عاما ، وليس فى هذا ما يكفى لأن أرد على الأستاذ حكمه ، فرجائى اليه أن يحدد ذلك الماضى أين وقع ؟ وهل كان منذ ثلاثين عاما أم كان منذ أربعين أو خمسين ، فهو أعلم بما يقول مما شهد فى حياته المباركة إن شاء الله

على أنى إذا كددت الذاكرة فى السنوات الثلاثين التى أدركت فيها ما كان حولى لم أذكر إلا محاولة ضئيلة فى النقد كان أكثرها من شبان أكبر همهم أن تذكر أسماؤهم إلى جانب الأسماء النابهة فى عصرهم — ولقد كانت وسيلتهم دائماً أن ينالوا من مقام أديب نابه لهجت الألسنة بذكره ، لا يقصدون النقد والحق ، ولكن يقصدون أن تتحول الأنظار إلى شخوصهم

ولست أذكر فيما أذكر من تلك السنوات أن تعرض نقد تعرضاً يذكر إلا لأمثال شوقى وحافظ — كأنما النقد قد صب صباً فى قالب واحد ، فهو لا يتسع لغير الشعر وقصائده ودواوينه ، وأما ما عدا ذلك فلا أذكر أن قامت معركة على كتاب من الكتب التى نقلها الأستاذ الكبير فتحى زغلول ، ولا على كتاب مثل (التربية الاستقلالية) ، بل لا أذكر نقداً يذكر قام به النقاد ترجمة حافظ لجزء من البؤساء ، أو قصة (زينب) الهيكلية ، أو ما ألفه المنفلوطى ، أو الأستاذ فريد وجدى

وإنى كلما أدرت الفكر فى ذلك العصر الماضى لم أجد إلا محاولات بسيطة تشبه محاولات الطفولة فى النقد — وقد صدق الأستاذ هيكل فى تصوير ذلك إذ قال إن النقد أول ما يعانيه الأديب الناشىء من المحاولات

فان كان لنا من تعرض الى ذلك الأمر فانا نحمد الله إذ انقضى ذلك العصر بما كان فيه

فهل فى شرعة الانصاف أن يتوفر مؤلف على كتاب لا يزال دائباً على البحث من أجله ، ويقضى النهار والليل فى التحقيق والتثبت ليخرج به على الناس فيجلو لهم أموراً كانت من قبل مظلمة ، ويبين لهم مواطن كانت مبهمة غامضة ، فاذا به يرى ناشئاً من الشباب يريد أن يحول الأنظار اليه فيتناول ذلك الكتاب المسكين بالنقد ولا يزال به حكا وتجريحاً بيد ثقيلة غير صناع حتى يدميه ويلهبه ؟ إن هذا اذن لشبيه باليتيم المسكين الذى يذهب الى الحلاق ليسوى له شعره ويزيل عنه الشعث والأغبار فاذا بذلك الحلاق يدفعه الى أحدث صبيانه وأقلهم مهارة ليتعلم الصناعة فى رأسه . لا . لا . فالهم حوالينا ولا علينا . فما كان لنا أن نلوم شباب اليوم كما يحب لنا الدكتور هيكل أن نفعل ، بل إن علينا أن نحمد فيهم ذلك العقل الراجح وهذا الذوق الجميل الذى حدا بهم الى تجنب النقد فى هذه الأيام ؛ وإنها لمفخرة لعصرنا أن موجة النقد قد ركدت فيه ما دام ذلك النقد لا يقوى إلا إذا أخذ به الشباب الناشئ ليجعله وسيلة ليظهر للناس مقدرته على الكلام والكتابة وتدوير المعانى وتلفيفها

على أنى أرجو أن يغفر لى النقاد إذا قلت لهم إن هذا العصر لا يشكرهم على يد أطول من انصرافهم عن النقد . فان الأدباء قد وجدوا فى صمتهم متنفساً . وإنها لفرصة لمن شاء أن يؤلف فليغتنمها المؤلفون فى غفلة من الدهر . وأى شىء أعدل وأسمح من أن يؤلف المؤلف إذا شاء فاذا وجد من يقرأ له كان سعيداً محموداً . وللناس عقولهم ، فاذا أعجبهم ما قرأوا له أقبلوا على مؤلفاته وألقوا اليه بأنواع التحية وأشاروا اليه بالبنان كلما رأوه كما كان يفعل الناس فى الأعصر الخوالى . وأما إذا كره الناس ما قرأوا للمؤلف انصرفوا عنه ، وحسبه بعد ذلك أن يخسر ما بذل من ثمن الحبر والورق والطبع ..

إن القوامة مكروهة أينما كانت ؛ فاذا اتخذ النقد شكل القوامة كان حرياً بأن يكون مكروهاً . هذا إذا كان القيم ممن يحسنون السيطرة ويعدلون فى الهيمنة — فما بالنا به إذا كان يسرف ويدل ؟ وإلا فوايم الله إن من النقاد من لو حكمت فى أمره لأمرت جميع بانى الأقلام من كل الأنواع بأن يمتنعوا عن أن يبيعوه قلماً واحداً . وإنى لأذكر أحد هؤلاء وهو ممن تزعموا فى المروبة وقد نقد كتاباً مترجماً عن الانجليزية فى تاريخ مصر . ولم يشأ أن يجعل نقده لذلك الكتاب فى مقالة مفردة فقرن بينه وبين كتاب فى فن (الطهى الحديث) وأطاليه . ولقد رأيت

ذلك الكاتب المفضال بعد ذلك يتنقل فى النقد ما بين العلوم والفنون فضرب عافاه الله فى التاريخ والتصوف والحديث واللغة والدين والفلسفة . ولا أعلم بعد إذا كان قد بلغ حظائر الطب والموسيقى والفلك أم هو سائر فى طريقه إليها . ولم يكن هذا الناقد فذاً فى هذا النهم العلمى ! بل لقد رأيت علماً من أعلام النقد فى مصر يستعرض سلسلة من المؤلفات ويبدى رأيه فى كل منها ، ويهز رأسه عند الانتهاء من نقد كل منها ، ويلمس لحيته لمس الفلاسفة الأقدمين ؛ وكأنى به قد نسى أن العصر قد تقادم على عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وأن الناس قد أخذوا الحاكم أخذاً شديداً فلم يدعوا فيها شعرة واحدة . ولقد رأيت كاتباً عبقرياً أخذ على نفسه أن ينقد الأدباء . وواتاه القلم على عادته وأصاخ له الناس على عادتهم ، وهو إذا تكلم أو كتب فالناس كلهم أسماع

ثم استعرض بين حين وحين كتاباً فكان كل ما استعرضه أو جله دواوين للشعر ، وهذا حسن ، فلعله قد خصص نفسه للنقد وما يتعلق بها ، وقرأت نقده كما قرأه الناس فكان لبقاً كعادته حلو الحديث بما وهبه الله فى أسلوبه ، ولكنى لم أستطع أن أفهم ما قال . فلقد كان قوله إما مدحاً يسر الخاطر ويشرح الصدر — أقصد صدر المؤلف الممدوح ، وإما ذماً يكسر القلب ويدمى الفؤاد — وإنى لم أكن أحد هؤلاء الشعراء فلهذا لم ينلنى ذمه بألم ولا مدحه بفرح ، وعلى ذلك خرجت من كل ما كتب ، ولم أفقه شيئاً ، ولم أعرف ماذا أراد أن يقول

إن أغلب ظنى أن الغباوة هى التى قد حالت بينى وبين فهم ما قال ذلك الأديب الكبير ، ولكنى لم أسأل أحداً من أصدقائى عن رأيه إلا وجدته على مثل حظى من الغباوة وقلة الادراك

ولهذا السبب كان ذلك الأديب كثير التردد والتقلب فى رأيه ، فبينا هو اليوم يصفق إعجاباً بشاعر أو يصيح تقديراً لأديب ، إذا به بعد قليل وقد لمح من ذلك الشاعر أو من ذلك الأديب نكراناً لفضله أو جحوداً لجميله فينقلب مدحه إلى ذم يكاد الدم يسيل من وقعه

ولقد حسبت مرة أن ذلك الأديب الكبير قد خصص نفسه للنقد حقاً ، فأرسلت إليه بمؤلف حقير لى ثم تواريت خجلاً وجعلت أنتظر نقده وأقرأ جرائده كل يوم مدة طويلة حتى مللت ولم أظفر بشىء . ثم نسيت ذلك الأمر وعدت بعد سنوات اليه فأرسلت إليه بمؤلف آخر لا يقل فى حقارته عن المؤلف الأول ، وقلت فى نفسى إنه فى هذه المرة لا بد واثب على كتابى ، وممزقه كل ممزق — ولبثت أنتظر طعنته وأنا متوار ، وطال بى الانتظار على غير جدوى ، فعرفت أن من الكتب ما ينحط عن مقدار النقد ، ولو قد تكرم ذلك الناقد فقال لى كما قال مرة لأحد الشعراء : « إنك لا تعرف شيئاً » لما تألمت مثل تألمى من سكوته عنى ، لأنى كنت عند ذلك أفاخر الناس بأن ذلك الأديب قد قرأ كتابى ، وحكم على بأنى لا أعرف شيئاً . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان من أجدادى رجل — كما كان من أجداد كثير من القراء مثل جدى — أقول كان من أجدادى رجل إذا امتنع عن دفع المال للحاكم أمر المدير فأحضره وألهب ظهره بمائة سوط — فكان إذا أفاق من غشيته بعد الضرب يضحك ويقول : « الحمد لله إذ ضربنى المدير بنفسه » ثم نظر إلى الحاكم الغاضب وضحك مرة أخرى وقال : « ضربك شرف يا سعادة البك ! »

وبعد فلقد أنسانى آخر الكلام أوله ، ولابد من أن أعود إلى ما كنت فيه . أقول إنى أخالف الأستاذ أحمد الأمين فى رأيه كل المخالفة ، ولا أذم النقاد فى عصرنا الحاضر ، بل إنى أشكرهم وأعدها لهم مكرمة عظيمة أن فتروا فى النقد وخشعوا عنه . ولعل فيما قدمت من قولى ما يقنع الأستاذ ومن يرى رأيه بأن واجبنا أن نحمد الله على قلة النقد وتعفف الناقدين عنه ، واقتصارهم على الاعلان والمجاملة أحياناً ، أو التجهم أو التنكر أحياناً أخرى بحسب مكان المؤلف منهم وهل هو صديق أم هو بغيض ؛ فلقد أدرك الناس منهم ذلك واطمأنوا إليه . فاذا أراد الأستاذ بعد ذلك أن يستمر فى المحاجة والمناقشة فانى مضطر الى أن ألجئه الى ركن لا يستطيع فيه المقاومة ولا يجد لنفسه مناصاً من الاقرار لى بالغلبة — وذلك أنه قال إن التأليف قد زاد فى عصرنا — أليس كذلك ؟ ثم قال إن النقد قد ركد كذلك فى عصرنا — أليس كذلك ؟

أفلا يرى الأستاذ اللوذعى أن هاتين الحقيقتين منذ تلازمتا كانت إحداهما نتيجة للأخرى ؟

فاذا أراد الأستاذ أن يستمر التأليف على نهضته كان عليه أن يترك النقد نائماً ولا يوقظه

أيحاول الأستاذ الأمين بعد هذا مجادلة ؟

محمد فريد أبو حديد